بمناسبة ذكراه الثانية

حافظ بك ابراهيم

الشاعر الوفى لمصر

بقلم السيد احمد العجان

حافظ شاعر النيل متعدد النواحى فى الدراسات ، متشعب المباحث فى التناول ، والتحليل الدقيق إنما يكشف كل ناحية ويبين كل مبحث ، وليس الألمام بعبقريته ونبوغه وشاعريته وخياله مما تأتى عليه هذه العجالة ، ولكنا سنقتصر على ناحية واحدة هى وفاؤه للنيل وأهله ، وكيف كان هذا الوفاء دفيناً فى نفسه ، مستقراً فى جنانه العامر ، يتحرك به لسانه فى كل مناسبة ، ويجرى به قلمه كلما عنت فرصة

والذى نلاحظه فى شعر حافظ هو ما يحملنا على اليقين بصدق وفائه وإخلاصه ، ومحبته لمصر وأهلها ؛ فهو إذا انتقد كان لاذع النقد قويه ، يظهر المثالب ، ويعدد المساوئ ، ويود لو نتخلص منها ، ونحيد عنها . وقد يكون فى النقد المرّ اللاذع شكاً فى الوفاء والأخلاص لو أنه ضن بالنصيحة وبخل بالأرشاد . ولكن حافظاً حين يهزه الألم من حالة مصر حتى ليود الخلاص من الدنيا ، والفرار من الحياة ، وحين يسخط شديد السخط عليهم ؛ لم يكن لكراهته لهم ، وبغضه إياهم ، وإنما لأنه يرجو لهم الخير الشامل الغامر ، والرقى الدائم السديد ، يحدثنا حافظ عن ذلك بأجلى عبارة واوضح أسلوب

أنا لولا أن لى من أمتى ... خاذلاً ؛ ما بت أشكو النوبا
أمة قد فتّ فى ساعدها ... بغضها الأهل ، وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا ... وتفدّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالى لعبا

ومما يقوى لدينا الأدلة على وفاء حافظ للنيل ، وحبه لهذا الشعب أنه لم يكن يقنع بالتحدث عن الغرض الواحد عدة مرات بهذا الأسلوب العالى الرصين ، كالذى نراه فى وصفه للحالة الداخلية وموقف بعضنا من بعض ، وموقف الصحافة منا ومن الوزارة ، ثم موقفنا من دار المندوب البريطانى ، وبيانه أن طريق الرقى هى العلم ، وأنه الوسيلة فى النجاح والظفر ، وهو من وراء ذلك يضع أمله قوياً فى الشباب ، ويكثر من ندائه لهم ، ولا يزال يستنهض الهمم ويضرب المثل باليابان كما سنوضح ذلك من شعره

إن إخلاص المخلص لا يؤدى ثمرته إذا لم تتوفر فيه عناصر ثلاثة : نقد قوى اللهجة للمثالب حتى يحس المنتقد ضعفه ، ويقف على عيوبه ؛ فيجتنب الغرور ويقترب من الفضيلة ؛ ونصح سديد الفكرة تظهر فيه سبل الخير ويبين منه طريق الهدى ؛ كى يسلكه المنصوح له دون عثار أو ضلالة ؛ وأمل فى الله والشعب كبير رجاء التوفيق وابتغاء الاصلاح .

وهذه العناصر الثلاثة قد ظهرت بوضوح فى شعر حافظ ، وكان لكل منها مظاهره العدة ، وأثوابه المتنوعة . وسنتناول كلا منها على حدة :

١ — نقده : فى الشعر السابق وصف حافظ ما نحن عليه من كراهة الأهل وحب الغرباء ، وأننا كرماء لضيوفنا ، نهوى الألقاب فى غير العلا ، ونعشق الرتب . ويحدثنا عن حالتنا النفسية بلغة سليمة مستقيمة فنحن :

ألفنا الخمول ويا ليتنا ... ألفنا الخمول ولم نكذب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم ... ويكرم فينا الجهول الغبى

ونراه يحدثنا عما هو واقع بيننا من الفخر بالمال الموروث أو بالرتب ، ثم تأخذه حمية الغضب ؛ فيقول إنما الفخر بالعلم والاختراع ، وبالفضل والأدب :

بَسَمت للشمس لما ... سطعت فوق الخميله
وبدت فى الروض تزهو ... مثل حسناء جميله

* * *

فاسلمى يا زهرة الوا ... دى من الأيدى العوادى
وانبذى الماء على الأرْ ... ض الى ماء الغوادى

محمد مصطفى حموده

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا بمال غير مكتسب
فقل للفاخرين أما لهذا الفخر من سبب
أروني بينكم رجلاً ركيناً واضع الحسب
أروني نصف مخترع أروني ربع محتسب
أروني نادياً حفلاً بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب

ولقد عاب علينا اعتبارنا للمظاهر ، وانخداعنا بالملابس :

إن قومى تروقهم جدة الثو ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب باهر لونه وبين حذاء

وضعف الرجولة داء كمين فى بعض المصريين كشف عنه حافظ ، وأبان طوائف الناس بين مهلل مع المهللين لا يعرف له غرضاً ، وبين ساع إلى دار المندوب البريطانى ، أو متردد على أبواب الحكام

فهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وداء آخر أشد فتكاً ، وأقوى بطشاً ، وهو الصحف التى تطن طنين الذباب ، وما هى إلا حصائد ألسن تجر إلى الويلات وأنها أيبست ما بيننا فى الأخذ والرد ، فصحف ترى رأى المندوب البريطانى ، وأخرى تعد هذا جرماً وإثماً كبيراً ، والوزارة من وراء ذلك فى رغد ونعيم

وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب

وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب
حصائد ألسن جرت إلى الويلات والحرب

وأرى الصحائف أيبست ما بيننا أخذاً وردّا
هذا يرى رأى العميد وذا يعدّ عليه عدّا
وأرى الوزارة تجتنى من مرّ هذا العيش شهدا

ومصابنا الذى يفوق كل مصاب ، وداؤنا الذى يعلو على كل داء ، هو تزلفنا لدار المندوب البريطانى وهو البعيد عنا لغة ، وجنساً ، ودينا ، والأجنبى عنا مهبطاً وميلاداً ، والذى لا نلتقى وإياه إلا فى وادى بؤسنا ودار نعيمه ، والذى لا تجمعنا وإياه آلام ولا آمال . وحافظ يبرئ المندوب من كل ذنب ، ويخليه من الملام فسبيله أن يستبد ، أما نحن فشأننا أن نستعد

وقالوا دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياماً ولما نفق فشمر للسعى والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب

أنا لا ألوم المستشار (م) إذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد (م) وشأننا أن نستعدا

٢ — نصح وإرشاد : ولكن حافظاً لم تقل من عزمه هذه العيوب ، ولم تثن همته تلك المثالب ، ولم تقعد به هذه المخازى عن إسداء النصيحة وحث الهمم ، وضرب اليابان مثلاً ، وجعلها قبلة

فهبوا من مراقدكم فان الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابان جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً وهمنا بابنة العنب

أيجمل من بعد هذا وذاك بأن نستكين وأن نجمدا
وها أمة الصفر قد مهدت لنا النهج فاستبقوا الموردا

ثم نراه لا يرسل النصيحة خلواً من كل سند ، بل يشفعها بتلقين عظمة الآباء ، والأيحاء بعزة الماضى ، ومجد التاريخ ، ويرى أن الزمان قلب ، والفلك دوار ، وأنه لا علينا أن نهزم اليوم إذا كنا نتوثب للغد ، وأن نبتلى فى الحاضر كى نتأهب للمستقبل

فدنياك يا نيل لا تجزعن إذا اليوم ولى فراقب غدا
فلا يبؤسنك قول العداة وإن كان قيلاً لكز المدى
أتودع فيك كنوز العلوم ويمشى لك الغرب مسترفدا
ويقضى عليك قضاة الضلال طوال الليالى بأن ترقدا

ونراه لا ينسى هذا التلقين والأيحاء والاعتداد بالماضى فى كل مناسبة وفرصة كما فى وداعه لصديقيه محمد بك بدر ، وأحمد بدر عند سفرهما الى بلاد الانجليز

سيرا أيا بدرى سماء العلا واستقبلا التم ولا تأفلا
سيرا الى مهد العلوم التى كانت لنا ثم ازدهاها البلى
وخبرا الغرب وأبناءه بأننا نحن الرجال الأولى

لئن غدا الدهر بنا مدبرا لابد للمدبر أن يقبلا

ويختم حافظ نصيحته بالوسيلة الأولى للنجاح والظفر، والتغلب على الصعاب ألا وهى العلم، ويرى أن انشاء الكتاتيب لا يغنى عن العلم الصحيح، وأن ألف كتاب لا تعدل مدرسة عالية، أو جامعة منظمة تضم بين جنبيها رجالاً أكفاء يتعهدون الناس بالتعليم، والمداواة، والسهر على الأمن والأرواح، والقضاء فيهم، والاشراف على موارد المياه وتصريفها، ورصد الافلاك والكواكب، والبحث عن بقايا القدماء، ومخلفات الآباء بالحفر والتنقيب

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبو الأجير أو الحراث قد بلغا حد الكتابة فى صحف وفى كتب

من المداوى اذا ما علة عرضت ؟
من المدافع عن عرض وعن نشب ؟
ومن يروض مياه النيل ان جمحت
وأنذرت مصر بالويلات والحرب ؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم ؟ حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
. . . . . .
ومن يميط ستار الجهل ان طمست معالم القصد بين الشك والريب
فمالكم أيها الأقوام جامعة ألا بجامعة موصولة السبب

٣ — رجاؤه فى تحقيق هذه الآمال : ثم إن حافظا — رحمه الله — كان عامر الفؤاد بالرجاء فى الاصلاح، قوى الايمان بالتوفيق، يود لو هيأ الله لمصر صلاحا وللنيل سعادة. وقد وضع أمله بين يدى الشباب ونابتة العصر، ولا غرو فالشباب أقوى من يحمل الأمانة، ويؤدى الرسالة تحت إرشاد الشيوخ، وموعظة الكهول.

يامصر هل بعد هذا اليأس متسع
يجرى الرجاء به فى كل مضطرب
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا كأننا فيك لم نشهد ولم نغب
نبكى على بلد سال النضار به للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب

ثم هو فى ندائه للشباب يضع آلام الوطن بين يديه، ويثير عواطفهم لحبه والأخلاص له، بأسلوب أخاذ يجامع القلب والنفس جميعاً.

وهو رحمه الله حين يأمل الخير للنيل ووادية، ويرجو له أن تحقق آماله وأمانيه، وألا تحلو موارده إلا للمخلصين من بنيه؛ تهيج به الآلام، وتحرك كوامن غيظه ودفين حيرته

متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كأننى عند ذكرى ما ألم بها قرم تردد بين الموت والهرب

هذا حافظ الشاعر الوفى لأهله ووطنه، والمخلص لشعبه وأمته، مر عامان على وفاته، دون أن يذكره شعبه أو يحيى ذكراه؛ لولا أدبه الخالد الذى يأبى الركود ويعشق الحياة

قد أضاعوك غير أن الذى أظْ هرت من عبقرية لا يضيع

فرحمه الله وجزاه باخلاصه، وعوضه عن نكران شعبه حياة أدبه

السيد احمد العجاته

هل شعرك يتساقط ؟..

اذا كان شعرك يتساقط فبادر باستعمال

زيت ١٠١ S. S.

فانه يحفظ شعرك من السقوط وينميه ويقوى بصيلاته ويعطيه لوناً طبيعياً ولمعاناً جميلاً :

ثمن الزجاجة عشرة قروش صاغاً خالصة أجرة البريد. ترسل اذن أوطوابع بريد برسم الوكيل الوحيد للقطر المصرى والسودان

ابراهيم ابراهيم شافعى

بوكالة أبو زيد بالسكة الجديدة بمصر

فوست المصرية

ظهرت حديثاً رواية :

ايزيس

لمؤلفها محمد زكى صالح

تطلب من مكتبة الهلال وهندية وديمر والمكاتب الشهيرة